



على مدخل دمشق الغربي، اغتيل العقيد محمد ناصر في عام 1950م. لم يكن مصرع قائد سلاح الجو أول مشهد من مشاهد الصراع الدموي في الجيش السوري. فقبل شهور قليلة، سُحب المشير حسني الزعيم -رئيس الجمهورية- من فراشه بالقوة، في الهزيع الأخير من الليل. سيق بملابسه الداخلية، هو ورئيس حكومته الدكتور محسن البرازي، إلى جوار مقبرة فرنسية مهجورة في ضاحية المزة. ونفذ فيهما حكم بالإعدام بالرصاص، أصدرته قيادة انقلابية جديدة.

مقتل العقيد ناصر دشن بداية مبكرة جداً لزحف ضباط الطائفة العلوية للاستيلاء على السلطة السياسية، ليس عبر صندوق الاقتراع الديمقراطي، إنما من خلال السيطرة على مؤسسة القوة. المؤسسة العسكرية. للتغطية، فقد سارع العقيد أديب الشيشكلي قائد الانقلاب الثالث، في تاريخ سوريا العاصف، إلى اعتقال الضابطين اللذين اغتلا زعيم الكتلة العلوية في الجيش. قدمهما إلى القضاء. فصدر حكم بتبرئتهما!

في مذكراته، يسند أكرم الحوراني سبب الجريمة إلى الصراع آنذاك بين الاستعماريين الأميركي (الجديد) والأنجلوفرنسي (القديم). ويلمح إلى أن العقيد ناصر والضباط العلويين ربما حاولوا الاتصال بعرّاق نوري السعيد الذي كان تحت الهيمنة البريطانية، لاستعادته على نظام الشيشكلي الذي كان أكثر ميلاً للولايات المتحدة، ولنصر الملكية. ثم لمصر الناصرية.

غير أنني -وبعد كل هذه السنين- أدرج تلك الجريمة في فلك الصراع الداخلي الذي كان مستعرًا بين الكتل العسكرية. ودليلي في دحض رؤية الحوراني اغتيال العقيد عدنان المالكي -رجل الجيش القوي بعد سقوط نظام الشيشكلي/ 1954م-. فقد أثبتت المحاكمة العلنية الطويلة لقتلة المالكي (1955م) الذي كان زعيم الكتلة العسكرية الاشتراكية المؤيدة للحوراني، أن الأصوات الأمريكية كانت على صلة بالحزب السوري القومي الاجتماعي الذي نفذ رجاله في الجيش عملية الاغتيال، ضد ضابط كبير محسوب على اليسار المعادي لأميركا.

بحكم عملي الصحافي، شهدت وقائع المحاكمة. ولم يكن بالإمكان دحض التهمة. فقد جرى الاغتيال في ملعب لكرة القدم، على مرأى من ألف المشاهدين. وكان أمامي، في قفص الاتهام، معظم قادة الحزب، بمن فيهم جولييت المر أرملة أنطون

سعادة، وعصام المحايرى زعيم الحزب فى سوريا. وإلى جانبهم جنود ثلاثة الاغتياىل، وقادتهم صف الضابط فؤاد جيد. وكانوا كلهم من عسكر الحزب والطائفة العلوية في الجيش.

نفذ حكم الإعدام بالجنود، باستثناء فؤاد جيد. وحكم على الأرملة والمحايرى بالسجن مدةً تقترب من عشرين عاماً. وحكم بالإعدام غيابياً على العقيد غسان جيد المخطط العسكري للعملية، وكان زعيمًا لكتلة العلوية في الجيش - خلفاً للعقيد ناصر، بالإضافة إلى زعامته لكتلة الحزب العسكرية.

مزقت السياسة والأيديولوجيا أسرة جديد العلوية:

كان الشقيق الأكبر والأوسط - غسان وفؤاد - منتميين إلى الحزب السوري القومى ذى الميول الفاشية المعادية للعروبة ولليسار، فيما كان شقيقهما الأصغر النقيب صلاح بعثياً. وأنكر أن صلاح اعتقل على الشبهة العائلية. ثم أفرج عنه. ذات يوم، فاجأني فؤاد - قائد فريق الاغتياىل - بالوقوف أمامي في المقهى الذى أرتاده، ليقول لي: "ها أنا. بعد عشر سنوات، ما زلت حياً". فقد تذكر فؤاد الصحافي الذى غطى محاكمته. وواضح أن الذى أفرج عنه كان شقيقه "اللواء" صلاح جيد الذى أصبح رجل سوريا والبعث القوى في الستينات.

لم يكن غسان جيد محظوظاً كشقيقه. نجا من المحاكمة. لكن لم ينج من الحكم. فقد لاحقته المخابرات السورية. وتمكن من اغتياله في لبنان، فيما اغتال أبناء أحد الأسر الحموية القوية اللواء سامي الحناوى في بيروت، ثاراً لمقتل أحد أبنائها. وما زلت أعتقد أن الحناوى قتل لمجرد كونه قائد الانقلاب ضد المشير الزعيم، فيما كان بعض ضباط الانقلاب وراء إعدامه فعلاً. فقد كانوا مناصرين أو منتسبيين للحزب السوري القومى. وروعهم إلى حد الفجيعة غدر الزعيم بأنطون سعادة، بتسلمه إلى السلطات اللبنانية المطلوب لديها. وقام نظام الرئيس بشارة الخوري بمحاكمته وإعدامه سريعاً (1949م).

القوة تستدعي القوة. الاغتياىل يجر الاغتياىل:

راح زعيم لبنان العروبي الكبير رياض الصلح ضحية إعدام سعادة. فقد اغتال رجال الحزب السوري القومى الرجل الكبير في عمان، حيث كان ضيفاً على صديقه الملك عبد الله الأول - الجندي الكبير للملك عبد الله الثاني -. وكان الصلح يشعر بالإحراج لإعدام سعادة، بعدهما توسط لدى الزعيم بتسلمه إلى لبنان. كان يتوقع محاكمة عادلة له، وليس إعدامه بهذه السرعة.

بل كان اغتياىل رياض في الأردن إحراجاً كبيراً للعاشر الأردني. ومصدراً لتشاؤمه. وبالفعل اغتيل الملك في العام التالي لاغتياىل رياض (1951م)، وهو يهم بدخول المسجد الأقصى للصلوة فيه. لم يكن للحزب علاقة بقتله. كان الرصاص فلسطينياً. لأسباب تتعلق بإدارة الملك الأردني لحرب النكبة (1948م).

بعد هذا المسلسل الدامي، **أُلْتقط الأنفاس**، لأقول إن السياسة كانت وما زالت علاقة قوة في العالم العربي. لم يعرف العرب الحوار والتسوية السلمية طريقاً للممارسة السياسية. ظلت نظرية المؤامرة المكيافيلية أسلوباً للتعامل السياسي. وتم التحول من الأيديولوجيات السياسية، إلى أيديولوجيات أضيق، بتسبيس الدين، والطائفة، والمذهب، والعشيرة، بل والعائلة.

مع متابعتي الطويلة لمسيرة الطائفة العلوية نحو احتكار السلطة والسياسة، أقول: إن أبناءها لم يكونوا غرباء أصلاً عن العسكرية. ففي فقرهم وبؤسهم، شكلوا البنية الأساسية لـ"جيشه المشرق" كجنود. وكانت سلطة الانتداب شكلت هذا الجيش، من أبناء الطوائف كلها، في سوريا ولبنان. ثم سلمته عند الاستقلال، ليكون بتركيبه الغريب نواة لجيشين الوطنيين في سوريا ولبنان.

في كلية حمص العسكرية، خرجت فرنسا ضباط "جيشه المشرق" ليكون رديفاً لجيش الاحتلال. كانوا أيضاً من أبناء سوريا ولبنان. حالت "ديمقراطية دولة الطوائف" في لبنان دون حدوث الانقلابات. في سوريا، شكل ضباط "جيشه المشرق"

القيادات الكلاسيكية للجيش السوري التي عصفت، بانقلاباتها المدوية بين عامي 1949 م و 1961 م، بالديمقراطية السورية الوليدة.

كانت ملاحقة سليمان المرشد الزعيم الروحي لعشيرة المرشديين العلوية، ثم محاكمته وإعدامه، أيضاً من أسباب الشعور بـ"الظلم السنّي" لدى العلويين، فيما كانت المحكمة برئاسة (المحامي والسياسي صبري العسلي - 1947 م) تشعر بأن التمردسلح للمرشد في جبال محافظة اللاذقية، يشكل تهديداً خطيراً لاستقلال سوريا، ووحدة شعبها.

منذ أوائل السبعينات، تبدأ مرحلة جديدة في زحف الطائفة إلى السلطة: صراعاتها مع الطوائف الأخرى، منافساتها الداخلية بين فصائلها، وصولاً إلى الانتقال من حكم الطائفة في عهد الأب، إلى حكم العائلة في عهد الابن.

لهذا التاريخ الذي استغرق نحو خمسين سنة، قصة يجب أن تروى للأجيال السورية والعربية، ولا بدّ من استكمالها في حلقة أخرى في الثلاثاء المقبل، فهي الأهم والأكثر خطراً على الحاضر والمستقبل.

المصدر: جريدة الشرق الأوسط

المصادر: